قسم الأبحاث | 2018-08-04

الصّراع على الإسلام...

من الاستشراق إلى الجهادية الإسلامية

اسم الكاتب

كريم محمّد

جميع الحقوق محفوظة © 2018
www.hafryat.com

مدخل تاريخي

منذ القرن التاسع عشر, وتفتّت الاجتماع السياسي العربي والإسلاميّ إثر الاحتلال الكولونياليّ, وظهور فضاء جديد للدولة اشترع في تدشينه محمّد علي, بدأت حركة إعادة تأويل الإسلام كي يتوافق مع قيم الحداثة الوافدة حديثاً إلى الاجتماع العربيّ, وكانت إعادة التأويل هذه على عدّة مستويات, ولها أشكال عديدة, وليست ذات صبغة واحدة؛ فحين طرحت الحلول القائلة بالعودة إلى ما كان عليه الأمرُ -الحلّ السلفيّ- طُرحت أيضاً الحلول التي اتخذت نهجاً أكثر حداثة في ملائمة ما يمكن ملائمته بين «الإسلام» (الذي تمّ تعريفه كدين حديثاً), و«الحداثة» التي اختُزلت في تمظهراتها التقنيّة أحياناً, أو في الموائمة بين الإسلام كنظام عقيديّ والحداثة كنظام سياسيّ واجتماعيّ حديث.

وفي العشرينيّات, ومع سقوط الخلافة العثمانيّة التي يتمّ التشديد كثيراً عليها من قبل الباحثين باعتبارها حدثاً مؤسّساً لما سيظهر فيما بعد كإسلام سياسيّ, نشأت ردّات فعل إسلاميّة؛ كان أكثر أشكالها وضوحاً جماعة الإخوان المسلمين, التي انطلقت عام ١٩٢٨م, على يد المؤسّس حسن البنا, الذي رأى أنّ الانطلاق بحركة تحمل شعاراً إسلامياً هو السبيل للمّ شمل الأمّة, بعد هذا التمزق الذي حصل للخلافة, إضافة إلى الاستعمار الذي كان حاضراً في مصر آنذاك.

بيد أنّ الإسلام السياسيّ, كحركة سياسيّة-اجتماعيّة, كان بالأساس صراع على تمثيل الإسلام في صورة سياسيّة, فالبنى القديمة للاجتماع الإسلاميّ لم تنهر تماماً, كما أنّ البنى المستوردة حديثاً لم تَفد هي أيضاً بصورة تامّة, وهذا التأرجح كان دائماً السّمة المميّزة للحداثات المغايرة؛ أي تلك البلدان التي شهدت الحداثة خارج أوروبا, باعتبارها موطناً لحداثة أخرى, حداثة تريد أن تقطع مع البنى القديمة, لترسيخ نفسها, مع تزاحم البنى القديمة التي تأبى الانحلال, وفي هذا الصراع المادي والرمزي, نشأ «الإسلام» كحقلٍ متنازَع عليه؛ فلم يعد جامعاً روحياً واجتماعياً للأمة, إنما أصبح محل نقاش سياسي بالأساس: من يمثله؟ هل له دور سياسي؟ ما شكل السياسة في الإسلام؟ إلى غيرها من الأسئلة المطروحة في تلكم الأوقات.

لكن, قبل عملية الصراع هذه, كانت هناك حركة استشراقية قوية, حاولت هي أيضاً أن تمسك بزمام الإسلام, عبر تعريفه إمّا كـ «آخر» لأوروبا أحياناً, أو آخر للمسيحية أحياناً أخرى, أو كأنه دين عصيّ على التحديث في مرات كثيرة.

في البداية, لا بدّ من الإبانة بأن مفهوم الاستشراق ليس, كما يعرَّف بصورة اختزالية: بأنه «حقل أكاديميّ يعنَى بدراسة الشرق», وهو التعريف الذي نقده نقداً واضحاً ولاذعاً الناقد الأدبي والثقافي إدوارد سعيد, في كتابه المهمّ **«الاستشراق»** (orientalism) عام 1979؛ حيث يعدّ إدوارد سعيد هذا التعريف مختزلاً, بل ولا يكشف شيئاً؛ فالاستشراق في صورته الأعمق, بحسب سعيد, هو «مجموعة من الحدود والقيود المفروضة على الفكر, أكثر من كونه مجرّد مذهب إيجابيّ[1]».

وتكشف المراحل الأولى قبل القرن التاسع عشر الرغبة الجامحة عند أوروبا في صورتها الاستعماريّة للشرق لفهم الإسلام, وإعادة تعريفه, فكما يوضّح زكّاري لوكمان في كتابه «تاريخ الاستشراق وسياسيته», ترجع عملية الهيمنة العسكرية على الشرق الإسلامي إلى أغوار بعيدة, مروراً بالحروب الصليبيّة إلى القرن التاسع عشر, وحتى عصر الإمبراطورية الحالي. ويكشف زكاري عن كون المعرفة الاستشراقية كانت تتغير في كلّ مرحلة من مراحل الوعي الأوروبي بالإسلام وبالشرق. ومن المهم, أن نلفت إلى أن المعرفة الأوروبية بالإسلام ليست واحدة؛ بل هي مختلفة إلى حدّ كبير. فمثلاً, في عصر الأنوار, كانت معرفة الفلاسفة الأنواريين بالإسلام غير تلك التي سبقتها, فقد كانوا يرون أن الإسلام دين عقلانيّ, وأنّ الانحطاط العربي راجع لأسباب تاريخية, وليس لأسباب متعلقة بالإسلام. ولا ننسى في هذا المقام, أن الكنسيّين كانوا يتهمون الأنواريين بأنّهم «أسلموا» المسيحيّة؛ أي أنّهم خلّصوا المسيحية من خرافاتها وأضفوا عليها أبعاداً طبيعية عقليّة, ما جعل المسيحية تشبه الإسلام, وهذه المحطة الأنواريّة, غيّرت العلوم الاستشراقية في القرن التاسع عشر, التي كان مقرّها باريس[٢].
وتفيدنا ملاحظات زكاري في أنّ الاستشراق اللاحق ليس مجرّد حقل للمعرفة, بقدر ما هو حقل للسلطة أيضاً, وهذا التناغم بين السلطة والمعرفة قد كشف عنه وبيّنه

إدوارد سعيد، وتيموثي ميتشل، وغاياتاري سبيفاك، وغيرهم ممّن حاولوا فهم الطبيعة الاستعمارية لـ «المعرفة بالشرق».

لكن، أعتقد أنه لا بدّ من تفحُّص رؤية عصر الأنوار أيضاً إلى الإسلام، فإذا كان فعلاً حصل تقدم موضوعي في الدراسات الاستشراقية، إلّا أنّ النظرة الأنوارية كانت مركزية في نظرتها للإسلام، فالأنوار كانت تمركز العقل، باعتبار أنّ العقل كلّي وجوهراني، مما يعني أنّ الإنسان إذا أزال الوهم عن عقله، سيتخلص من كل ما يتجاوز العقل، ميتافيزيقا كانت أم أديانا. ولا أقول بالطبع إنّ الأنوار كانت ضدّ الأديان، إنّما كانت الأنوار هي عصر «الدين في حدود مجرّد العقل»، ألم يكن كانط قد كتب كتاباً تحت هذا العنوان[٣]، وكانط هو المشرّع الأخلاقي والفلسفي للأنوار؟

الإسلام كآخر: الأطروحة الاستشراقيّة

لقد تمّ طرح الإسلام دائماً في المخيال الأوروبي كآخر للمسيحية[٤]، آخر جموح، لا يمكن ترويضه، ولا يقتصر الأمر على الإسلام فحسب، بل تمّ النظر إلى الشرق كمرادف للإسلام في كثير من الأحيان، باعتبار الإسلام شرقياً والشرق إسلامياً، وقد أدرك الكولونياليّون قبل أوانهم هذا، فدخلوا في حروب صليبية مع ديار الإسلام، رغم الطابع الاقتصادي لهذه الحروب.

والحال أنّ عملية فهم الغرب للإسلام، أو للشرق، إنما تسبقها خطوة أخرى؛ ألا وهي خطوة فهم الغرب لنفسه، على أنّه «غرب»، مقابل كيان آخر (جوهرانيّ) هو الشرق، فلا يمكن فهم الغرب للإسلام، أو للشرق، إلّا إذا فهمنا فهمه لنفسه -كغرب- أولاً. فلم يكن الغرب ليهيمن على الشرق إلّا إذا أعاد تعريف نفسه كغرب أولاً[5]، وهذا ما فعله بالرجوع إلى الأصل الإغريقي؛ حيث تمت صناعة تاريخ للعقل يبتدئ من الإغريق إلى أوروبا الحديثة، بحيث ينشطر التاريخ إلى «تاريخ العقل» الذي يرادف الحرية والفردانية والديمقراطية الإثنية، وإلى «تاريخ غير عقلانيّ» حيث الاستبداد والقهر والجهل، فصار التاريخ منشطراً بين الإغريق المتحررين وآسيا الاستبدادية، ما مهد لنشوء الكولونيالية الحديثة، وكيف لا، وأكبر فيلسوف كولونياليّ حديث هو هيغل الذي عدّ إفريقيا مثلاً «بلا تاريخ؟[6]».

ينطلق الخطاب الاستشراقي الكلاسيكي بالأساس من فصل أنطولوجي ومعياري بين ما هو الشرق وما هو الغرب, ويتساءل الراحل إدوارد سعيد في كتابه «الاستشراق» آنف الذكر, سؤالاً مهمّاً هو: «القضية الرئيسة التي يثيرها الاستشراق: هل يستطيع المرء تقسيم واقع الإنسانيّة, ما دام هذا الواقع يبدو حقاً منقسماً على نفسه, إلى ثقافات وتواريخ وتقاليد بل وأجناس تختلف اختلافاً بيناً ثم ينجو من العواقب بصورة إنسانيّة؟[...] والواقع أنّ أمثال هذه التقسيمات كان القصد من استعمالها تاريخياً وفعلياً تأكيد أهمية التمييز بين بعض الناس وبعضهم الآخر. [...] فالنتيجة عادة ما تكون استقطاب التمييز؛ أي زيادة «شرقية» الشرقيّ و«غربيّة» الغربيّ, والحدّ من التلاقي الإنساني بين الثقافات والتقاليد والمجتمعات المختلفة[7]».

كلّ ذلك يوضح أنّ الإسلام وتاريخه, والعرب وتاريخهم وثقافتهم, قد خضعوا للمتخيّل الغربي الذي صنعته الرغبة الأوروبية للهيمنة على الشرق وعلى دينه البارز الذي هو الإسلام. فالاستشراق ليس سوى «خطاب» صُنع عن الإسلام وعلومه والعرب وتاريخهم, وهو خطاب أدرك الآخر الأوروبي كينونته فيه, فهو ليس موضوعياً؛ لأنّ المعرفة الإنسانية متحيزة بالطبع, وكما نتعلم من فوكو؛ فإنّ مفهوم «الخطاب[8]» هو عبارة عن نمط ورؤية للعالم في الحديث عن العالم؛ فالعالم الذي أمامنا, أو الواقع, لا يمكن الحديث عنه إلّا من خلال خطاب ما. كما أنّ الخطاب يصنع «موضوعاً» يكون محلاً لقوة الخطاب والهيمنة عليه, ولذلك ربط فوكو بين المعرفة والقوة, فمن يملك القوة المادية والرمزية هو الذي يصنع الخطاب المحفوف بالقوة, ويقيم في هذا الخطاب «تخيّلاته» وتحيزاته وحقائقه, أيضاً, عن «موضوع» الخطاب, الذي هو «الشرق» في الخطاب الاستشراقي.

وإنّ هذا الفصل المعياري لم يكن ليستخدمه الاستعمار ويشتغل عليه الاستشراق إلّا بتخليص الغرب من أيّ خارج له, بحيث تتم عملية من تخليص تاريخ الغرب من أيّ خارج له, واعتباره ذا معجزة إغريقية تمتد إلى يوم الناس هذا, وذلك ليس فقط على مستوى تأريخ تاريخ الغرب نفسه, بل حتى على تواريخ الثقافات الأخرى. إلى حدّ قريب, كان الجهاز الاستشراقي يعدّ المعرفة الإسلامية وعلوم الإسلام والفلسفة الإسلامية ليست سوى سرقة من اليونان القديم, بل تمّ اعتبار فلاسفة الإسلام عبارة

عن عبارات أرسطو بلسان عربي مبين[9]. لا أريد أن أثبت صحة ذلك هنا أو خطأه, ما أريده بالتحديد هو أنّ الأنا المتمركزة حول ذاتها وهي تكتب تاريخها, وتؤرّخ لنفسها, تحاول أن تجعل نفسها امتداداً في ثقافات أخرى. ولا يمكن نسيان أن الاستشراق أيضاً في مرحلة من مراحله كان يعدّ الإسلام ليس سوى صياغة جديدة لليهودية القديمة.

القرن التاسع عشر: تحوّلات

وإذا كانت المعرفة الغربية بالشرق والإسلام قديمة, إلا أنّ القرن التاسع عشر كان فريداً من نوعه في الخطاب حول الإسلام والشرق عموماً, فقد تغيرت إستراتيجية فهم الغرب للشرق وللإسلام عن إستراتيجية الفهم القديمة التي تقوم على «تملك الشرق» عسكرياً, فتم إنشاء جهاز موازٍ يسمى «الاستشراق»؛ يقوم على التملّك المعرفي, إضافة إلى الاستعمار الذي هو التملك العسكري.
إنّنا نتعلم من فوكو أن المعرفة المصنوعة عن الغير ليست معرفة محايدة, بل إنّها معرفة سلطوية بالأساس, تعمل على إخضاع الغير لنمط إنتاج هذه المعرفة, ومقولاتها المؤسسة التي قد تكون ثقافة الغير لا تدخل في أفق المفاهيم نفسه.

والحقيقة, أننا كنا في حاجة إلى القرن التاسع عشر, كي نفهم معنى الاستشراق جلياً, بدل التهويمات الموضوعيّة على هذا المفهوم «الاستشراق», فنابليون لم يكن غازياً عسكرياً لمصر, بل جلب معه ترسانة كبيرة من العلماء والخبراء الذي «يدرسون» الإسلام وعلومه, وثروات مصر واقتصادها وواقعها.

وعليه, فإنّ الصراع على الإسلام بإخضاعه للمتخيل الأوروبي الجامح ليس وليد اليوم, بل له تاريخ طويل من إخضاع الإسلام للتأويلات الليبرالية التي تنطلق من مفاهيم الحرية والفردية الحديثة؛ حيث يتم إخراج الإسلام والشرق عموماً من تاريخ العقل, ولا يخفى ما قام به مستشرقو القرن التاسع عشر من إعادة تأويل للإسلام, تنطلق من هذه القيم التي ذكرتها, ونُظر إلى التجربة المحمدية في إطار التجربة المسيحية, وانطلقت التأويلات من مفاهيم الشهوة والجنس والبربرية لإضفائها على المسلمين

الأوائل والعرب. ففي أطروحته المهمة, يوضح ذلك البروفسور الفلسطيني, جوزيف مسعد, بوضوح في كتابه **«اشتهاء العرب»**؛ حيث يكشف مسعد الطرح الاستشراقي الجامح حول العرب والمسلمين باعتبارهم شهوانيين ومجموعة من الشواذ الرعاع, ويشيرُ مسعد إلى أنّ الغرب الذي كان ينطلق من قيم العفة رامياً العرب بالشهوانية الجنسية واشتهاء الغلمان, عاد في القرن العشرين ليكون هو الشهواني الذي يحمي «حقوق المثليين», ويطالب الدول العربية بأنه تنتهك حقوقهم ولا تسمح بحرية الجنس والمثلية[10].

إنّ الاستشراق صنع صورة معينة للإسلام, وتمّ الترويج غربياً لهذه الصورة في المخيال الغربي, أكاديمياً وإعلامياً وسياسياً, وهي صورة «غير ليبرالية», فبعد أن كان الإسلام آخر المسيحية الجامح, صار عدوّ الليبرالية (anti-liberalism), ضدّ الفرد والحقوق الفردية والجنسية والحريات الشخصية, ويكفي أن نعرف صورة الإسلام بعد أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر), قبل ١٥ عاماً, والآن بعد أحداث تشارلي إيبدو, والفظاعات التي يرتكبها تنظيم داعش.

وبالتالي, عُدَّ الإسلام, الذي يأتي غالباً رديفاً للشرق السحري, خارج تاريخ الحداثة, وخارج تاريخ العقل, ومن ثمّ أنيطت مهمة مزدوجة بالغرب الناشئ حديثاً: تحديث شعوب الإسلام, وتحديث الإسلام نفسه ليكون موافقاً للأطروحة العقلانية للتاريخ.

من الاستشراق إلى الراديكالية الإسلامية

تطرح الحركات الراديكالية الجهادية إشكالاً جدّ عسير على المسلمين والغرب معاً, وهو سؤال متعلق بماهية الإسلام: ماذا يكون هذا الدين؟ وما هو جوهره؟ وهل هناك تمثيل حقيقي للإسلام معتمد, في حين يُقصى تمثيل آخر؟ ويكاد يكون السؤال قديماً -وهو بالفعل قديم- على هذه اللحظة المتوتّرة من التغيرات التي تحدث ليس إسلامياً أو عربياً فقط, بل بالأحرى عالمياً.
صحيح أنّ الإسلام تمّ التساؤل عن ماهيته من قبل؛ منذ تدشين الاستشراق كعمل وكفعل, قبل أن تتمّ صناعة مفهوم «الاستشراق», كما أنّ ما يسمّى النهضة

العربيّة منذ بدئها, دخلت في عملية إعادة تعريف الإسلام, وتبيان جوهره, إن على نحو علمي أحياناً, وإن على نحو أيديولوجي, يعمد إلى الكشف عن الجوانب العقلانية في الإسلام كي يتماشى مع العصر الحديث, وصحيح جداً أنّ لحظة النهضة كانت لحظة متوترة في تاريخنا المعاصر, لحظة تكشف عن «المفارقة» التي مثلها خير تمثيل الشيخ الإمام محمد عبده, من الأسئلة المزدوجة, والردود المتأرجحة[11].

ليس غريباً أنني ابتدأت المقال بالاستشراق, لأنتهي بذكر التيارات الجهادية العنيفة, حيث تحدثت طوال المقال عن الاستشراق والغرب, والمخيال الذي صنع عن الإسلام؛ حيث كان ذلك عن قصد كي أنفذ إلى ما يحدث الآن على الصعيدين الإقليمي العربي الإسلامي والعالمي عموماً.

فالإسلام أُعيد تعريف من جهاز الاستشراق كي يُستلب ويُهيمن عليه, وذلك باختراع صفات جوهرانية له, لا بدّ من أن يتمّ التخلص منها إذا أُريد له أن يكون «هادئاً», وبالتالي يمكن ترويضه. واحتيج إلى إعادة التعريف هذه بشدّة بعد ظهور الحركات الجهادية في السبعينيات, خاصة مع «الجهادية العالمية», وليس انتهاء بتنظيم داعش, وظاهرة الجهاد المعولم, وظهور المقاتلين الأجانب, وهو المصطلح الذي بزغ مع ما يسمّى «الجهاد الأفغاني», لكنه اكتسب صبغة جديدة مع تنظيم داعش.

ولم يعمل الخبراء الغربيون فقط على إعادة تعريف الإسلام, بل كثير من المفكرين العرب الذين ينطلقون من نظرة جوهرانية للإسلام, باعتباره هو المشكل في ظاهرة العنف الجهادية, وباعتباره ديناً غير ديمقراطي وتسلطي, فراحت مشروعات عربية كثيرة تعمل على إعادة قراءة الموروث الديني, على اعتبار أنّ الموروث الديني هو المصدر الأساسي للعنف الجهادي المعاصر.

وأود أن أسجل ملاحظة على هذه المشروعات بصفة عامّة؛ هي أنّه يخترقها أمران لا بدّ من فهمهما:
أولاً: هي مشروعات غير قادرة على التعاطي مع الإسلام كدين له إشكالاته ومفاهيمه وسياقه الروحي والتاريخي, بل نجد أن أغلب من يعيدون قراءة الموروث

الديني يتعاملون مع الإسلام بعيون مسيحية, باعتبار أنّ الإسلام سيدخل في دورة التحديث كما دخلت المسيحية عندما يتخذ «شكلاً» ما, كنسياً في الغالب, ويتمّ تجاوزه من خلاله. ورغم مسيحية القراءة, إلّا أنّها أيضاً تعتمد على قراءة مجتزأة باعتبار الغرب قد تجاوز المسيحيّة, وهي الأطروحة التي لطالما انتُقدت من منظّري ما بعد العلمانيّة, والعلمانيين, ودارسي الغرب المسيحي.

ثانياً: إنّ من يعيدون قراءة الموروث الديني يعانون جرحاً نرجسياً[12] تجاه الآخر الأوروبي, ونظيرهم الغربي, فيعملون على تنقية كلّ مصادر هويتهم مما لا يتواءم مع الهوية المؤوربة.

لقد كان ظهور الإسلاموية كظاهرة عموماً, هو المحرّك الخفي لمشروعات إعادة قراءة الإسلام وإعادة تأويله وتعريفه, فكما يقول المفكر التونسي فتحي بن سلامة, في كتابه «التحليل النفسي والإسلام»: «لم يكن الاهتمام بالإسلام نقطة من برنامجي أو من برنامج الجيل الذي أنتمي إليه, لم أتخذ قراراً بالاهتمام بالإسلام إلا عندما ابتدأ الإسلام يهتم بنا, اعتقد هذا الجيل, الذي فتح عينيه على نهاية الاستعمار وبداية إقامة الدولة الوطنية, أن قصته مع الدين قد ولت, وأنه لن يثار أبداً في المستقبل كمسألة في تنظيم المجتمع[13]», فالظاهرة الإسلاموية عموماً دفعت هؤلاء المفكرين إلى إعادة التفكير في الإسلام, وماهيته وجوهره, وتحقّقه التاريخي[14].

إلّا أنّه ما لم يعد التفكير فيه هو ظاهرة العنف الحديث, والجهاديات العالمية باعتبارها نتاجاً لهذا العنف الحديث, أريد أن أوضح, بشيء من الاختزال لطبيعة المقال, أنّ العنف كما نراه الآن ليس نتاجاً للإسلام أو للتراث الذي تقول الجماعات الجهادية, إنها تنتمي إليه, العنف كما نراه الآن هو ظاهرة حديثة, وحداثية على وجه الخصوص, وهذا العنف بهذا النوع لم يكن موجوداً قبل العصور الحديثة, صحيح أن العنف تمّت ممارسته على مستويات كثيرة, وأحبّ أن أسميه هنا «السلطة» وليس العنف؛ إلا أنّ هذا العنف ناجم عن ميتافيزيقا الإنسان الحديث, ميتافيزيقا الهيمنة والسيطرة والتحكم.

والحال أنّ الظاهرة الجهادية منذ نشوئها تخضع إلى تفسيرات وتحليلات من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار, من تحليلات اقتصادية للظاهرة إلى تحليلات بنيوية لمشكل العنف الكامن فيها, وإلى تحليلات سيكولوجيّة للمنتمين لهذه الجماعات, وتشيع هذه التحليلات بكثرة هذه الأيام, لا سيما مع التوحش الداعشي, وامتداداته في البلدان العربية لتفتيتها, بل وإلى العواصم الأوروبية, مع ما يمتلكه التنظيم من أدوات وماكينات إعلامية ضخمة.

لكن هناك حالة تغلب على التحليلات التي تناولت الجهادية الإسلامية, لا سيما في صورتها الداعشية, ألا وهي حالة ردّ كل ظواهر العنف إلى مكون واحد, ديني غالباً, وبالتالي يكون هو السبب, فمثل هذه التحليلات إنّما تُميت «الحدث» لأجل سردية كبرى في مخيالها, تردّ الظواهر إليها.
فإذا كان الفقيه يعمل على ردّ داعش إلى الخوارج القدامى, ليُلقي الحكم عليهم جاهزاً, فإنّ المثقف المستنير يحاول أن يربط داعش مثلاً بالوهابية, التي هي نقيض «التنوير» في تصوّره.

بيد أنّ هناك قراءة أكثر ليبرالية منتشرة بعد التوحش الداعشي, وهي قائمة منذ أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر), تقوم على إضفاء نظرة جوهرانية على الإسلام بوصفه رديفاً للشرّ والعنف, ليس فقط, إنما أيضاً للانفصام النفسي والاغتراب عن الثقافة الحديثة والحضارة المتنورة. وأيضاً, تنبني هذه القراءة على إسقاط ليبرالي مبتذل في قراءتها للجهاديين وتحولاتهم, وحياتهم الشخصية.

«إسلام» داعش

يطرح الخبراء, والمحلّلون, والصحافيون العالميون علينا صيغتين من القبول بالإسلام بعد كلّ حدث لتنظيم داعش, لا سيّما منذ إعلانها الخلافة عام ٢٠١٤, ألا وهما: صيغة يمينية تقول إنّ الإسلام لا أملَ منه, ولا حاجة إلى السعي إلى إصلاحه, لأنّه لن يصلَح أصلاً, وبالتالي كان «إسلام» داعش هو الإسلام الحقيقي, وغيره هو مدارة.

أمّا الصيغة الثانية, فكانت صيغة ليبرالية, تحاول أن تلعب على فكرة «الإسلامات», وأنّه لا بدّ من تصدير إسلام معتدل في المنطقة, لأنّه بلا تصدير ذلك الإسلام, ستنشأ عندنا دائماً الإسلامات الجهادية. في العالم العربي, انقسم المشهد أيضاً إلى هذه القسمة, ونوديَ بالإصلاح من قبل مثقفين وساسة ورجال قانون.

والحال أنّ هناك تيمة متفشية في الصحافة العالمية منذ أربعة أعوام, وما تزال تعاد إلى اليوم, ليس فقط في الصحافة الغربية, وهي تيمة الحديث عن مارتن لوثر مسلم, وهل هو موجود, أو وُجد, أم لا, ومن ثم الحاجة إلى اختراعه أو إيجاده؟

اللافت في الأمر؛ أنّ هذه النقاشات تأخذ حيزاً من الكتابة والردّ بشكل واسع, حتى يُظن أنّ من يدافع عن «الإسلام» في هذه الصحافة, بالقول إنّ التاريخ الإسلامي قد شهد محاولات إصلاح, أو إنه دين ليس عصياً على الإصلاح, وبداخله «نزعات» عقلانية, هو في صفنا ويحمل معركتنا إلى آخرها. في حين أن الخطابين, بالنسبة إليّ, الخطاب القائل إنّ «الإسلام» دين ينتج العنف ويجل عن الإصلاح (كخطاب اليَمينية الحمقاء أيان حيرسي علي), والخطاب المناقض, كلاهما ينبعان من بئر واحدة, وإن اختلفت المصالح والأهداف.

فأولاً: ما يجري من نقاشات حول «الإسلام» في مثل هذه الصحافة؛ هي نقاشات تعبّر عن أزمة الغرب نفسه, وعن قلقه الخاص, بعيداً عن الشعوب المسلمة (المتعددة, التي تختلف من بلد إلى آخر, ومن حالة إلى أخرى, بكل تشابكات الواقع الاجتماعية والسياسيّة), وأنّها نقاشات لا تمتّ إلينا بكبير صلة, إنما هي متعلقة بتمثيلات الغرب لـ «الإسلام» وللمسلمين, وهي تمثيلات مؤسسة على بنية استشراقية وسياسات خطاب يصرفها صاحب القوة والنفوذ.

ثانياً: إن «الربيع العربي» في خطاب هذه الصحافة؛ هو الربيع الذي سيعقد دولاً وسياساتٍ اقتصادية على شاكلة الليبرالية الغربية, ومن ثم دفاعهم المتخيل عن «ربيع عربي» و«ديمقراطية» تم إجهاضها, هو دفاع عن غرب يتمدد في حاضر العرب ودولهم, وليس عن «ربيع عربي» مناهض ومكافح للغرب ولكل سياساته

الاقتصادية, وللخروج من التبعية؛ لذلك, حتى النقد الموجَّه إلى أمريكا مثلاً, حيال الربيع العربي, ليس نقداً يتعلق بأنها خربت هذه البلدان, ولا بدّ من إيقاف الإمبريالية, بل هو نقد في حقيقته, بغير وعي, يساند هذه الإمبريالية بأنه: لماذا لم تتدخلي (كأمريكا) كحلّ لنزاعات الشرق الأوسط وتعيين «معتدلين» يرعون المصالح لا أكثر؟ ومما هو متّصل بذلك, هو أنّ تصدير جماعات الإسلام السياسي «المعتدلة» بوصفها تشكل خطراً على «الغرب», كلام لا يقوله إلّا من لا يريد أن يعرف الواقع فعلاً, فـ «المعتدلون» الإسلاميون موضع ترحيب وإشادة دائمة من هذه الصحافة ومراكز الأبحاث «العلميّة» (يمكن للمرء في هذا السياق أن يمرّ على مقالات شادي حميد[15] مثلاً بـ «بروكنجز» الدائمة التي يقنع فيها الغرب بالإسلاميين).

وفي الأخير؛ تطرح الحركات الجهادية الراديكالية إشكالية الصراع على الإسلام أيضاً, وهي إشكالية بقدر ما لها من الثقافة, فهي لها من السياسة أضعاف ما لها من الثقافة. وبالتالي, فإنّ اختزال المسلمين والإسلام في جوهرانيات متجردة, تتحرك وحدها, كأنّها بنى لم يصنعها البشر, ولم يساهموا في نموها, هو ضرب من الهراء, ولتصدير الخطابات التي تستغل مشاعر الملايين وتجيّشها.

إنّ المسلمين متعددون بصورة لا يمكن حصرها, لكنّ الخطاب الاستشراقي والخطاب الجهادي اشتركا في تجميعهم في خطاب واحد, في لحمة واحدة, في قولبة نمطية لا تنفك, إنّ المسلم والإسلام, سجينان لمنظورات خطابية لا تتيح لهما أن يخرجا إلى العالم.

المراجع

[1]- **الاستشراق**، إدوارد سعيد، الترجمة العربية، ت. محمد عناني، دار رؤية، ص 99.
[2] -من المفيد جداً الاطلاع على أطروحة زكّاري لوكمان، في كتابه: **تاريخ الاستشراق وسياساته: الصراع على تفسير الشرق الأوسط**، في الكتاب كله، خاصّة الفصل الثاني من الكتاب، المعنون «الغرب والإسلام وما يتبقّى»، ص ص 89- 127، الترجمة العربية، ت. شريف يونس، دار الشروق.
[3]- **الدين في حدود مجرد العقل**، إمانويل كانط، ترجمة: فتحي المسكيني، دار جداول، 2011.
[4]- انظر: Joseph Masaad, Islam In Liberalism, University of Chicago, 2015.
[5]- لمناقشة جديّة ونقديّة لمفهوم الغرب، أحيل إلى المرجع المهمّ، كتاب «**الشرق المتخيّل: رؤية الغرب إلى الشرق المتوسطي**»، لـ تيري هنتش، ترجمة: غازي برو، دار الفارابي والمركز القومي للترجمة.
[6]- في كتابه «**في دلالة الفلسفة وسؤال النشأة**»، وضّح الطيّب بوعزة المركزية الأوروبية في كتابة هيغل لتاريخ الفلسفة، ويمكن الرجوع أيضاً إلى كتاب «**المركزية الغربية**» لعبد الله إبراهيم.
[7]- **الاستشراق**، إدوارد سعيد، مرجع سابق، ص 104.
[8]- إضافة إلى أعمال فوكو مثل: **نظام الخطاب**، و**المعرفة والسلطة**، وغيرها، ويمكن الرجوع إلى كتاب «**دراسات ما بعد الكولونيالية: المفاهيم الرئيسة**»، المركز القوميّ للترجمة، لا سيّما مفهوم الخطاب.
[9]- في هذا السياق، يمكن الرّجوع إلى مقال كنت قد كتبته بعنوان: «حول جدوى السؤال عن «فلسفة عربيّة»»، انظر: https://www.ida2at.com/feasibility-question-arab-philosophy/

[10]- **اشتهاء العرب**، جوزيف مسعد، دار الشروق، ص 66.
[11]- **مفهوم العقل**، عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الفصل الأول.

[12]- يمكن قراءة ما كتبه جورج طرابيشي في هذا الصدد. وبالمناسبة، فإنّ

طرابيشي الذي حلّل «الجرح النرجسي» عند أقرانه من المثقفين العرب, هو نفسه يعاني من الجرح ذاته.

[13]- الإسلام والتحليل النفسي, فتحي بن سلامة, ترجمة: رجاء بن سلامة, دار الساقي, ص 29.

[14]- ناقش المفكر الفلسطيني جوزيف مسعد أفكار بن سلامة في كتابه آنف الذكر, في دراسة تحت عنوان: «الإسلام ... إشكالية المصطلح», من المهم قراءتها. جوزيف مسعد, مجلة «وجهة نظر», العدد 128, أيلول 2009.

[15]- كتب شادي حميد عشرات المقالات في ذلك, وقد خرج له كتاب أخير بعنوان «الاستثنائيّة الإسلامية», فيه من المغالطات وإلقاء الكلام على عواهنه ما فيه, إضافة إلى ترويجه للإسلاموية القائم على تناقض فجّ. يمكن الرجوع إلى هذا المقال الذي كتبته عن «الحتمية الإسلامويّة» التي يفترضها خطاب حميد, ومن على شاكلته: https://www.ida2at.com/the-middle-east-and-alleged-islamist-inevitability/

hafryatnews

hafryatnews

hafryat news

hafryatnews

hafryatnews

hafryat news

All Rights Reserved © 2018

www.hafryat.com

جميع الحقوق محفوظة© 2018